



من صفات الداعية: الهمة العالية

د. رقية بنت نصر الله محمد نياز
جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن بالرياض



من صفات الداعية: الهمة العالية

د. رقية بنت نصر الله محمد نياز

جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن بالرياض

ملخص البحث:

تعد الهمة العالية من الصفات السامية التي ينبغي للداعية أن يتحلى بها وأسمى ما فيها أنها اقترنت بشرف المقصد وهو الدعوة إلى الله تعالى، ذلك أن الإسلام دين العزة والكرامة، دين الرفعة والارتفاع، دين الجد والاجتهاد، ولهذا فإن كل الأوامر والنواهي الربانية تدعو وترغب في معالي الأمور، وتحذر من سفاسفها، ومن أعظم الشواهد على ذلك ما ارتضاه رب العزة والجلالة لأمة الإسلام من تبوؤها القيادة والريادة العالمية على البشرية جميعاً، فهي الأمة الوسط، كذلك فإن دوران الهمة العالية في فلك الأخلاق الإسلامية، وسيطرتها على معظم الأخلاق، يزيد من قيمتها في الدعوة إلى الله تعالى، والدعوة الإسلامية ستفقد كثيراً من حيويتها وقدرتها في نفوس المدعوين إذا تولى زمامها دعاة غير أكفاء في مجال الهمة، خلقاً وسلوكاً. كذا مما يدعو الداعية أن يكون ذا همة عالية في مجال الدعوة إلى الله تعالى، كون إمكانية اكتساب هذه الصفة وتحصيلها بطرق سهلة ميسرة واضحة المعالم – كانت هي مجال هذا البحث – يستطيع الداعية من خلالها التحلي بها ومن ثم الإرتقاء إلى المعالي بشخصه، ودعوته، لذا فإن تحلي الداعية بصفة الهمة العالية من الأمور المهمة في الدعوة إلى الله، كيف لا يكون كذلك وهي التي تشحن الداعية للانطلاق بقوة وعزيمة، كالأطائر الذي استعلى بجسمه عن الدنايا والسواقط، فهو لا يرضى بالدون، ولا يصير عبداً لشهواته الخسيسة، بل ويجتهد لتحرير الفضائل قاصداً بذلك رفعة دينه ودعوته.



المقدمة:

إن الحمد لله، ونحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ أما بعد:

فإن المهمة العالية من الصفات السامية التي ينبغي للداعية أن يتحلى بها، ذلك أن الإسلام دين العزة والكرامة، دين الرفعة والارتفاع، دين الجد والاجتهاد، ولهذا فإن كل الأوامر والنواهي الربانية تدعو وترغب في معالي الأمور، وتحذر من سفاسفها، ومن أعظم الشواهد على ذلك ما ارتضاه رب العزة والجلالة لأمة الإسلام من تبوؤها القيادة والريادة العالمية على البشرية جميعاً، فهي الأمة الوسط يقول سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾^(١).

وهذه مسؤولية عظيمة، وأمانة كبرى، تتطلب جداً وعزماً وحزماً من أمة الإسلام خاصة من القائمين بالدعوة إلى هذا الدين.

ومما لا شك فيه أن المهمة العالية هي سلم للراقي لتخطي هذه المسؤولية، وأداء أمانتها في هذه الدنيا، ونيل المنزلة القصوى في الآخرة، و التركيز في هذا البحث على صفة المهمة العالية لا يعني أن هذه الصفة أهم من غيرها، لكنها وبلا شك صفة مطلوبة في القائمين على الدعوة للأسباب التالية:

أولاً: أن التخلق بهذه الصفة الرفيعة من الاتباع بمنهج الأنبياء والمرسلين عليهم السلام خصوصاً أولي العزم منهم، وعلى رأسهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، الذي أمرنا باتباع هديه وعدم العدول عن منهجه والمطالع على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم يجد بجلاء تمكن هذه الصفة العلية في أخلاقه وتعاملاته ودعوته، فكان حري على كل داعية الأخذ بها لموافقة النبي صلى الله عليه وسلم.

* اختيار عنوان البحث بعبارة تبدأ ب (من صفات الداعية) تمشياً مع جهد سابق قام به شيخي أ.د. فضل إلهي، حيث كتب في موضوع: (من صفات الداعية: اللين والرفق) وأسأل الله أن تكون سلسلة مباركة تخدم دعوة الإسلام.

ثانياً: الهمة العالية هي الطريق الموصل إلى المطالب العليا في كل أبواب الخير، وعلى رأس ذلك الدعوة إلى الله، ذلك لأن الدعوة إلى الله تعيش وتنتشر بالبذل والتضحية كما فعل عليه الصلاة والسلام وخيار هذه الأمة من بعده، فالعمل في قاموس الدعوة وفق منهج السلف الصالح هو الحياة، والتقاعس المخالف لما كانوا عليه هو الوأد، وهذا العطاء لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال الهمة. لهذا قال بعض البلغاء: "علو الهمم بذر النعم".^(١)

ثالثاً: الهمة تسمو بالداعية وتتوجه به إلى معالي الأمور وفي صدد بيان هذا يقول الفاروق رضي الله عنه: (لا تصغرن هممكم، فإني لم أر أقعد عن المكرمات من صغر الهمم).^(٢) ويقول ابن القيم: (من علت همته، وخشعت نفسه، اتصف بكل جميل. ومن دنبت همته، وطغت نفسه، اتصف بكل خلق رذيل)^(٣). ويقول ابن الجوزي: (الراضي بالدون دنيء).^(٤)

رابعاً: الداعية صاحب الهمة يقدم للدعوة ما تعجز عنه الثلة والجماعة الكبيرة، لأن الواحد منهم بأمة، والفرد بألف، ولهذا أشار القرآن الكريم إلى همة إبراهيم عليه السلام ووصفها بأنها تساوي همة أمة ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٥). ولما طلب عمرو بن العاص رضي الله عنه مدداً من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لفتح مصر، كتب إليه: "أما بعد: فإني أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف رجل منهم مقام الألف: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومسيلمة بن خالد".^(٦)

خامساً: الداعية في مقام القدوة عند المدعويين فلا بد أن تكون نفسه شريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها، وأحمدتها عاقبة،^(٧) وهذه الأمور تنال بصفة الهمة.

١ - أدب الدنيا والدين، للماوردي (ص ٤٠٢).

٢ - أدب الدنيا والدين، للماوردي (ص ٤٠٢).

٣ - الفوائد، لابن القيم (ص ٢١١).

٤ - صيد الخاطر، لابن الجوزي (٢/١).

٥ - سورة النحل / الآية: ١٢٠.

٦ - أوردته السيوطي في حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (ص ٣٧).

٧ - انظر: الفوائد، لابن القيم (ص ٢٦٦).

سادساً: الدعاة يتفاوتون في منازلهم، وصفة الهمة من المقاييس المهمة في هذا التفاوت، كما بين ذلك ابن القيم حين قال: "إنما تفاوت القوم بالهمم لا بالصور".^(١)

سابعاً: الهمة لها دورها الكبير في تحقيق هدف الدعوة الإسلامية والمتمثل في إصلاح الفرد والأمة، ولهذا لما طلب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً من أصحابه أن يتمنوا فقال رجل: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة ذهباً أنفقته في سبيل الله عز وجل. وقال رجل آخر: أتمنى لو أنها مملوءة لؤلؤاً وزبرجداً أنفقته في سبيل الله، وأتصدق به. فقال عمر رضي الله عنه تمنوا، قالوا: ما ندري ما نقول يا أمير المؤمنين؟ قال عمر رضي الله عنه: "لكني أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة رجالاً مثل أبي عبيده بن الجراح"^(٢). فعمر رضي الله عنه بفراسته وخبرته في مجال الدعوة إلى الله عرف أن صلاح الإسلام إنما تكون بهمة الرجال لا بكثرة الأموال، ولهذا جاء في نهاية الرواية، أن الرجل قال: ما ألوت الإسلام يا عمر فقال: ذلك الذي أردت".

ثامناً: صاحب الهمة العالية، والعزيمة الخيرة، إن صح قصده وخلص لله سبحانه كان على خير عظيم وأجر جزيل، حتى لو لم يتحقق مراده، أو لم يطل به العمر ليرى نتائج دعوته، ذلك أن الأعمال إنما تكون بالنيات، والهمة من أعمال القلوب التي يوفق الله من يشاء من عباده إليها.

تاسعاً: الهمة العالية سبب بإذن الله دافع للعمل الصالح مع عدم اليأس أو القنوط واستعجال النتيجة والثمرة، وهذا من أهم ما على داعية الحق أن يكون عليه، لأن الاستسلام للواقع والظن بعدم القدرة على الإصلاح، من أخطر آفات الدعوة ومن أكبر معوقات تقدمها.

عاشرًا: الهمة العالية سبب لتقدم الأمم ورفع الشعوب، والداعية إلى الله يحرص أن تكون أمة الإسلام قائمة مؤثرة على أمم الأرض كلها ما أمكنه ذلك، فوجود هذا الخلق عند أفراد الأمة أمانة عز لها، وبرهان على قوتها وعلوها، ومن نظر لحال شعوب

١ - المرجع السابق (ص ٧٧).

٢ - أخرجه الإمام أحمد في فضائل الصحابة (٧٤٠/٢)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٤١٣/٢) قال محقق سير أعلام النبلاء (١٤/١): "رجاله ثقات، لكن فيه انقطاع بين ابن أبي نجيع وعمر"

تحتل اليوم الصدارة و التأثير على أُمم الأرض، علم أن من أهم الأسباب لهذه الصدارة هي الجد و البذل المرتكز على همة عالية و تضحية متفانية، و المسلم صاحب الحق أولى بهذا و أجدر، فكيف بالداعية المتبع للنبي صلى الله عليه و سلم.

من هنا نقول أنه حري بالداعية الموفق أن يحرص على التخلق بهذه الصفة، و يجد السير مع قوافل ذوي الهمم العالية، وإن من أقبح النقائص الرضا بالدون مع القدرة للتخلق بصفة الهمة خاصة في مجال الدعوة إلى الله، ذلك لأن الداعية صاحب الهمة الرفيعة يجمع بين أمرين عظيمين في الميزان الإلهي:

أحدهما : صفة الهمة ذاتها حيث بين منزلتها صلى الله عليه و سلم بقوله: (إن الله تعالى يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفاسفها).^(١)

والأمر الثاني: شرف المقصد، ونبيل الغاية والهدف، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.^(٢)

ومن أجل السعي لبناء هذه الهمة حثت الدعوة الإسلامية على التحلي بها، ووجهت الدعاة إلى طرق اكتسابها وبينت الطرق والوسائل إلى اكتسابها، وبيان هذا يكون من خلال تقسيمات في هذه الدراسة والتي جاءت على النحو التالي:

أولاً: المقدمة وكانت في بيان أهمية الموضوع.

ثانياً: موضوع الدراسة وأشتمل على مبحثين:

المبحث الأول : مفاهيم حول حقيقة الهمة العالية ومكانتها في الدعوة الإسلامية؛

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مفاهيم عامة حول حقيقة الهمة.

المطلب الثاني: مكانة الهمة العالية في الدعوة الإسلامية وفيه مسلكان:

❖ **المسلك الأول: الحث على علو الهمة في القرآن الكريم.**

١ - أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٣١/٢) حديث رقم (٢٨٩٤) وقال الألباني في صحيح الجامع الصغير: صحيح، حديث رقم (٢٧٧١).

٢ - سورة فصلت / الآية: ٣٣.

❖ **المسلك الثاني:** الحث على علو الهمة في سنة النبي صلى الله عليه وسلم.

المبحث الثاني: في كيفية بناء همة الداعية ، وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : أصناف الدعاة إلى الله في شأن الهمة.

المطلب الثاني: أنواع الهمم العالية .

المطلب الثالث: طريق الداعية لتحقيق الهمة العالية، وفيه ستة مسالك:

❖ **المسلك الأول :** اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى وطلب العون منه.

❖ **المسلك الثاني :** طلب العلم و البصيرة في الدين .

❖ **المسلك الثالث :** الوقوف مع النفس محاسبة ومجاهدة.

❖ **المسلك الرابع :** التحلي بالأخلاق الإسلامية.

❖ **المسلك الخامس :** الشعور بمسؤولية الدعوة إلى الله تعالى.

❖ **المسلك السادس :** التحول عن البيئة المثبطة للهمم.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

* * *



المبحث الأول :

مفاهيم حول حقيقة الهمة العالية ومكانتها في الدعوة الإسلامية

وفيه مطلبان:

المطلب الأول : مفاهيم عامة حول حقيقة الهمة.

المطلب الثاني : مكانة الهمة العالية في الدعوة الإسلامية.

المطلب الأول

مفاهيم عامة حول حقيقة الهمة

المقصود بالهمة:

الهمة: مأخوذة من الفعل الثلاثي (همَّ) يقال همَّ بالشيء يَهْمُّ همًّا أي : نواه، وأراده ، وعزم عليه.

والهمة تنطبق بكسر الهاء وفتحها، ومعناها واحد وهو: ما همَّ به من أمر ليفعله. واختلافهما من حيث الإضافة فيقال : له همة عالية أو سافلة.^(١)

وقد ميز ابن القيم بين الهم والهمة، فقال : الهم مبدأ الإرادة والعزم ، والهمة نهايتها.^(٢)

ويوضح الجرجاني هذا المعنى بقوله: "الهم : هو عقد القلب على فعل شيء قبل أن يفعل من خير أو شر. والهمة: توجه القلب وقصده بجميع قواه الروحانية إلى جانب الحق لحصول الكمال له أو لغيره".^(٣)

من هذه المعطيات اللغوية نخرج بجملته من الفوائد حول حقيقة الهمة والتي ترغب الداعية لاتخاذ الهمة صفة يتحلى بها، ومن هذه الفوائد:

- أن الهمة صفة من الصفات داخل النفس الإنسانية لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة، لأنها عبارة عن (نية، وإرادة، وعزيمة).

١ - انظر لسان العرب، لابن منظور (١٢/٦٢٠، ٦٢١) والقاموس المحيط للفيروز آبادي (ص ١٥١٢). ومعجم مقاييس اللغة، لابن فارس (٦/١٢).

٢ - انظر: مدارج السالكين (٣/٣).

٣ - التعريفات، للجرجاني (ص ٣٢٠).

- أن محل الهمة القلب، فهي من أفعال القلوب، وتحديدًا هي نهاية أعمال القلوب - كما بين ذلك الجرجاني - وبداية لأفعال بني آدم الحقيقية، فهي الباعث على الفعل، وفي صدد بيان ذلك يقول السلف: "همتكم فاحفظوها، فإن الهمة مقدمة الأشياء، فمن صلحت له همته وصدق فيها، صلح له ما وراء ذلك من الأعمال".^(١) والهمة وإن كنا لا نراها فإننا نرى آثارها في السلوك الإنساني ولهذا توصف بالصلاح والفساد، وبالعلو والسفول، يقول ابن القيم: "فالهمة العالية على الهمم كالطائر العالي على الطيور لا يرضى بمساقطهم، ولا تصل إليه الآفات التي تصل إليهم، فإن الهمة كلما علت، بعدت عن وصول الآفات إليها، وكلما نزلت قصدتها الآفات من كل مكان، فإن الآفات قواطع وجوازب، وهي لا تعلق إلى المكان العالي فتجذب منه، وإنما تجذب من المكان السافل، فلهو همة المرء عنوان فلاحه، وسفول همته عنوان حرمانه".^(٢)

أن أعلى الهمم ما كانت متصلة بمحوبات الله ويؤكد ابن القيم هذا بقوله: "إن همة العبد إذا تعلقت بالحق تعالى طلباً صادقاً خالصاً محضاً، فتلك هي الهمة العالية".^(٣) ويقول: "علو الهمة أن لا تقف دون الله، ولا تتعرض عنه بشيء سواه، ولا ترضى بغيره بدلاً منه ولا تبيع حظها من الله، وقربه والأنس به، والفرح والسرور والابتهاج به بشيء من الحظوظ الخسيسة الفانية".^(٤)

- والهمة العالية تدور في فلك الأخلاق الإسلامية، بل هي الدافعة الباعثة عليها، وفي بيان هذا يقول الراغب: الكبير الهمة على الإطلاق هو من لا يرضى بالهمم الحيوانية قدر وسعه فلا يصير عبد بطنه وفرجه، بل يجتهد أن يتخصص بمكارم الأخلاق، والصغير الهمة من كان على العكس من ذلك، وكذلك كبير الهمة من يتحرى الفضائل قاصداً فيها مرضاة الله.^(٥)

١ - صفة الصفوة، لابن الجوزي (٤/٤٣٤).

٢ - مدارج السالكين، لابن القيم (١٧٢/٣).

٣ - مدارج السالكين، لابن القيم (٣/٣).

٤ - انظر: المرجع السابق (١٧١/٣).

٥ - انظر: الذريعة إلى مكارم الشريعة / للراغب الأصفهاني (ص ٢٩١)

- كذلك فإن الهمة العالية هي التي تدفع الإنسان إلى الكمال في كل ما يصدر منه عملاً وسلوكاً ويؤكد ابن الجوزي هذا في تعريفه للهمة فيقول: "خروج النفس إلى غاية كمالها الممكن لها في العلم والعمل".^(١) وسبق للجاحظ أن ذكر هذا المعنى بقوله: علو الهمة هو طلب المراتب السامية، واستحقاق ما يجود به الإنسان عند العطية بأوساط الأمور، وطلب الغايات والتهاون بما يملكه، وبذل ما يمكنه لمن يسأله من غير امتنان ولا اعتداد به.^(٢)

إذن فمما سبق من معاني الهمة العالية يؤكد على ضرورة تحلي الداعية بهذه السجية وأنها من الأساسيات الملازمة أثناء دعوته، خاصة إذا علمنا أن الدعوة إلى الله من أجل القربات للمولى سبحانه، حيث وصفها تعالى بالأحسن مبالغة في أهميتها وذلك حين قال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.^(٣)

وكذلك فإن الداعية من أشد الناس استحقاقاً للاتصاف "بالهمة العالية" ذلك لأن مبدأ الهمة "هم" يحمله الداعية، يقوده للانطلاق بإرادة قوية، وعزة وعزيمة مع نية صادقة، لطلب غاية الكمال في مواقف الدعوة إلى الله تعالى، فمبدأ الهمة هم، ونهايته عمل كما تقرر هذا من كلام السلف المتقدم.

المفهوم الخاطئ لحقيقة الهمة العالية :

من المفاهيم الخاطئة لمعنى الهمة العالية ربطها بصفة الاستكبار والعلو في الأرض مع إرادة الشرف للنفس، ذلك لأن الغالب اقتران العلو في الأرض بالفساد.^(٤) قال تعالى ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾^(٥) وفي قوله سبحانه: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يَرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.^(٦)

١ - صيد الخاطر، لابن الجوزي (١٨٩).

٢ - انظر: تهذيب الأخلاق للجاحظ (ص ٢٨).

٣ - سورة: فصلت، الآية: ٢٢.

٤ - انظر: علو الهمة، محمد بن إسماعيل المقدم، هامش (ص ١٢٥).

٥ - سورة: الفجر، الآية: ١١، ١٢.

٦ - سورة: القصص، الآية: ٨٣.

بل إن حقيقة الهمة العالية والتي سبق بيانها، لا تحوي هذا المفهوم الخاطئ لا من قريب أو بعيد يكون همَّ الشخص البغي في الأرض، والطغيان والاستكبار، فحينئذ تسمى "همة دنية وسافلة" لأنها تتسم بالوهن، وحب الدنيا، والتعلق بالمطامع الأرضية التي تثقل نفس الإنسان وروحه، فتشده إلى الأسفل، فلا تستوي هذه الهمة، وهمة من غرس في نفسه الاستعلاء على أهواء النفس وملذات الدنيا، فيتحرى الفضائل لا للذة والاستعلاء على البرية، بل لتحري مصالح العباد الدينية والأخروية طالباً لمرضاة الله وهذه هي حقيقة استعلاء الداعية الرباني،^(١) ويؤكد الإمام ابن القيم هذه الحقيقة حين يقول: "والفرق بين حب الرياسة وحب الإمامة للدعوة إلى الله: هو الفرق بين تعظيم أمر الله، والنصح له، وتعظيم النفس، والسعي في حظها، فإن الناصح لله المعظم له المحب له يحب أن يُطاع ربه فلا يعصى، وأن تكون كلمته هي العليا، وأن يكون الدين كله لله، وأن يكون العباد ممتثلين أوامره مجتنبين نواهيه، فقد ناصح الله في عبوديته، وناصح خلقه في الدعوة إلى الله، فهو يحب الإمامة في الدين، بل يسأل ربه أن يجعله للمتقين إماماً يقتدي به المتقون، كما اقتدى هو بالمتقين، فإذا أحب هذا العبد الداعي إلى الله أن يكون في أعينهم جليلاً، وفي قلوبهم مهيباً، وإليهم حبيباً، وأن يكون فيهم مُطاعاً، لكي يأتوا به، ويقتفوا أثر الرسول على يده، لم يضره ذلك، بل يحمد عليه، لأنه داع إلى الله يحب أن يطاع، ويُعبد، ويُوحد، فهو يحب ما يكون عوناً على ذلك موصلاً إليه."^(٢)

المطلب الثاني :

مكانة الهمة العالية في الدعوة الإسلامية :

تحتل الهمة العالية مكانة عليّة في كيان الدعوة الإسلامية، حيث تكاثرت نصوص القرآن الكريم والسنة الشريفة على حث الناس على ارتياد معالي الأمور والتسابق في

١ - سبق بيان ذلك في البحث.

٢ - الروح، لابن القيم (ص ٢٥٢).

الخيرات،^(١) وتحذيرهم من سقوط الهمة وسفولها، وقد تنوعت الأساليب في عرض ذلك وبيان ذلك تحت المسلكين التاليين:

المسلك الأول:

الحث على علو الهمة في القرآن الكريم:

أثنى الله تعالى على أصحاب الهمم العالية، وصورهم بأفضل الأوصاف وفي طليعة هؤلاء الأنبياء والمرسلون، وفي مقدمتهم أولو العزم من الرسل، وعلى رأسهم إمام الدعاة محمد ﷺ فبين سبحانه قوة عزمهم وهمتهم بقوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾.^(٢) حيث تجلت همتهم في دعوتهم إلى الله عز وجل.

- هذه همة أول الرسل وهونوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا، وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا، ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا، ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾.^(٣)

وعن همة آخرهم محمد ﷺ يقول تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾^(٤) ويقول تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسُكَ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾.^(٥)

كما قص القرآن الكريم مواقف الهمة العالية عن المؤمنين أتباع أنبياء ومن ذلك همة مؤمن المشار إليه في سورة يس التي دفعته لتبليغ الدعوة لقومه حيث ذكره القرآن في قول الله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ، اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ، وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا

١ - انظر الموضوع: في كتاب علو الهمة، محمد المقدم (ص ١٢٦-١٢٧) صلاح الأمة في علو الهمة د / سيد بن حسين

العفاني (١٠١-٤٥/١).

٢ - سورة: الأحقاف، جزء من الآية: ٣٥.

٣ - سورة: نوح، الآية: ٥، ٦.

٤ - سورة فاطر، الآية: ٨.

٥ - سورة: الكهف، الآية: ٦.

يَنْقُذُونَ، إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ، إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ، قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ، بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ^(١).

فهذا الرجل لما سمع دعوة الحق، ورأى فيها دلائل الحق، سعى بهمة عالية وتحرك للقيام بواجب الدعوة إلى الله وهو لا يطلب أجراً ولا ثناء، بل حمل هم الدعوة إلى الله في حياته وحتى بعد مماته، وفي صدد بيان هذا يقول ابن عباس رضي الله عنه "نصح قومه في حياته بقوله: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ وبعد مماته بقوله: ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ، بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾"^(٢).

ومما ذكره القرآن الكريم عن الهمة العالية أنه عبر عن أوليائه الذين كبرت همتهم بوصفهم بصفات القوة ونعوت الرجولة، وذلك في مواطن الثبات والجلد والعزيمة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَسِجَّ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ، رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾^(٣) وقوله س م بحانه ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾^(٤).

وكذلك جاء القرآن الكريم بأمر المؤمنين بالهمة العالية من خلال التنافس في الخيرات، فقال سبحانه: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(٥) وقوله: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٦) وقوله: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾^(٧)

١. سورة: يس، الآية: ٢٠-٢٧.

٢. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥٧٢/٦).

٣. سورة: النور، الآية: ٣٦، ٣٧.

٤. سورة: الأحزاب، الآية: ٢٣.

٥ - سورة: الحديد، الآية: ٢١.

٦ - سورة: البقرة، الآية: ١٤٨.

٧ - سورة: المطففين، الآية: ٢٦.

وقوله: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾^(١) وقوله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٣).

والآيات في هذا الشأن كثيرة، بل لا تخلو قصة في القرآن الكريم من آية فيها وعد وعيد، وأمر ونهي إلا وفيها حث على العمل والذي بدوره يفتقر لصاحب همة عالية، وما كان للهمة هذا الشأن إلا لأن الهمة عزة وأنفة للمؤمن ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٤).

المسلك الثاني

الحث على علو الهمة في سنة النبي ﷺ

كثير من أفعال النبي ﷺ وأقواله ترمي وتهدف إلى توليد قوة دافعة تعمل على تحريك قلب المؤمن، وتوجيهه إلى الطاعات، وتحذره من المعاصي، كل ذلك في إطار عام يبعث الهمم ويحركها بقوة عجيبة لنيل المعالي، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى فمن ذلك:

قوله ﷺ في حديث الحسين بن علي رضي الله عنهما: (إن الله تعالى يحب معالي الأمور وأشرفها، ويكره سفاسفها).^(٥)

- وفي رواية أخرى (إن الله تعالى يحب من العامل إذا عمل أن يحسن).^(٦)
- وفي وصية النبي ﷺ لأصحابه للتخلي بالهمة العالية: (احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز).^(٧)

١ - سورة: مريم، الآية: ١٢.

٢ - سورة: الزمر، الآية: ٩.

٣ - سورة: النساء، الآية: ٩٥.

٤ - سورة المنافقون، الآية: ٨.

٥ - سبق تخريجه.

٦ - أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٩٩/١٩) حديث رقم (٤٤٨) وصححه الألباني في الصحيحة (١٨٧/٢) حديث رقم (١١١٣).

٧ - أخرجه ابن ماجه في السنن (٣١/١) حديث رقم (٧٩) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢٠/١) حديث رقم (٧٦).

- بل وكان من دعائه ﷺ في هذا الصدد : (وأسألك العزيمة على الرشد) ^(١) وكان يتعوذ من سفول الهمم: بقوله ﷺ (وأعوذ بك من العجز والكسل). ^(٢)
- وبين ﷺ أن المعونة والخير تأتي من الله على قدر سمو الهمم وعلوها فقال: (إن المعونة تأتي من الله للعبد على قدر المؤنة). ^(٣)
- وقال عليه السلام : (من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة). ^(٤)

وهكذا فإن سنة النبي ﷺ القولية، والفعلية حافلة بما يدعو لرفع الهمم واستثارتها. وذلك لتحقيق القاعدة الداعوية (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف). ^(٥) وقد صنفت في ذلك مجلدات ^(٦) رتبت ونظمت تحت عناوين مستقاة من موضوعات الدعوة الإسلامية ليسهل للدعاة العودة إليها، والإستفادة منها.

إن ارتباط الداعية في سعيه بالكتاب والسنة سببٌ حقيقٌ بفضل الله لفلاحه وسعادته، وفي بيان ذلك يقول ابن القيم: ”نهاية سعادة العبد الذي لا سعادة له بدونها، ولا حياه له إلا بها، أن تكون إرادته متعلقة بالمراد الذي لا يبلى ولا يفوت، وعزمات همته مسافرة إلى حضرة الحي الذي لا يموت، ولا سبيل له إلى هذا المطلب الأسنى، والحظ الأوفى إلا بالعلم الموروث عن عبده ورسوله وخليله وحبيبه الذي بعثه لذلك داعياً، وأقامه على هذا الطريق هادياً، وجعله واسطة نيته وبين الأنام، وداعياً لهم بإذنه إلى دار السلام، وأبى سبحانه أن يفتح لأحد منهم إلا على يديه، أو يقبل من أحد منهم سعيّاً إلا أن يكون مبتدئاً منه، ومنتهياً إليه ﷺ“. ^(٧)

١ - أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٧٩/٧) حديث رقم (٧١٣٥). وقال الألباني في الصحيحة (٣١/١٣) حديث رقم (٣٢٢٨) "إن هذا إسناد جيد".

٢ - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد / باب : مما يتعوذ من الجن (٢٣/٤) حديث رقم (٢٨٢٣).

٣ - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٩١/٧) حديث رقم (٩٤٨٣) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٠٨/٢) حديث رقم (١٦٦٤).

٤ - أخرجه الترمذي في سننه (٤٥٠/٥) حديث رقم (٢٤٥٠) وصححه الألباني في الصحيحة (١٤٨/٣) حديث رقم (٢٣٣٥).

٥ - أخرجه مسلم، في صحيحه، باب في الأمر بالقوة وترك العجز...، حديث رقم (٢٦٦٣) (٢٠٥٢/٤).

٦ - على سبيل المثال: عمل د. سيد العفاني وموضوع : صلاح الأمة في علو الهمة، حيث تم تأليفه في تسعة مجلدات .

٧ - مفتاح دار السعادة، ومنشور ولاية العلم والإرادة ، لابن القيم (٤٦/١).

المبحث الثاني:

بناء همة الداعية

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول:

أصناف الدعاة إلى الله في شأن الهمة العالية

يختلف الدعاة إلى الله في تحليهم بخلق الهمة العالية، شأنهم في ذلك شأن الناس جميعاً، وهم في ذلك لا يخرجون عن أربعة أصناف هي:

أحدهم: صنف فيه القدرة على عظام الأمور، ولكنه يبخل بنفسه، فيضع همه في سفساف الأمور، وصغائرهما.

ثانيهم: صنف لا يقدر على عظام الأمور، ويحس بأنه لا يستطيعها، وأنه لم يخلق لأمثالها، فيجعل همته وسعيه على قدر استعدادة. وهذا الرجل بصير بنفسه، متواضع في سيرته.

ثالثهم: لا يكفي للعظام، ولكنه يتظاهر بأنه قوي عليها، مخلوق لأن يحمل أثقالها. وهذا من يسمونه "فخوراً" وإن شئت فسمه "متعظماً".^(١)

رابعهم: رجل يشعر بأنه فيه الكفاية لعظام الأمور، ويجعل هذه العظام همته وهذا من يسمى "عظيم الهمة" أو "عظيم النفس" أو "كبير الهمة" أو "كبير النفس".

وهذا الصنف الأخير قدره بين الناس، كالعملة النادرة يصدق فيهم وصف النبي ﷺ: (تجدون الناس كإبل مائة، لا يجد الرجل فيها راحلة)^(٢) الواحد منهم بأمة، والفرد منهم بألف وقد وجد أمثال هؤلاء الدعاة في جيل الصحابة رضوان الله عليهم، وبيان ذلك لما طالب عمرو بن العاص رضي الله عنه المدد من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في فتح مصر. كتب إليه: (أما بعد: فأني أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف

١ - انظر: رسائل الإصلاح، للعلامة محمد الخضر حسين (٨٧/٢) وعلو الهمة، محمد المقدم (ص ٦٠، ٦١).

٢ - أخرجه مسلم في صحيحه، باب: قوله عليه السلام: (الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة) (١٩٧٣/٤) حديث رقم (٢٥٤٧).

رجل منهم مقام الألف: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن خالد).^(١)

ومع ندرتهم هذه بين الدعاة إلا أنهم منتجون ومثمرون للدعوة، لأنهم لا يكثرثون بمخالفة الناكسين عن طريق الدعوة إلى الخير، فإنهم الأقلون قدراً وإن كانوا الأكثرين عدداً.^(٢) كما قال بعض السلف: عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلّة السالكين، وكلما استوحشت في تفردك، فانظر إلى الرعيل السابق، واحرص على اللحاق بهم، وغض الطرف عمن سواهم فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً، وإذا صاحوا بك في طريق دعوتك، فلا تلتفت إليهم، فإنك إذا التفت إليهم أخذوك وعاقوك.^(٣)

المطلب الثاني:

أنواع الهمم العالية

بما أن الدعاة أولي الهمم العالية هم الأفضل بين أصنافهم^(٤) فالسؤال الذي يتبادر إلى الذهن كيف يمكن للدعاة اكتساب هذا الخلق للتحلي به والاستفادة منه في الدعوة إلى الله؟ وقبل الإجابة على هذا لابد أن نفرق بين أنواع الهمم من حيث الملكة والكسب، حيث ثبت من خلال دراسة واقع الهممة العالية بأنها تنقسم إلى نوعين هما:

- الهممة العالية الفطرية.

- الهممة العالية المكتسبة.

وبدراسة هذين النوعين يتضح بجلاء كيف يمكن للدعاة اكتساب الهممة العالية. وهذا التقسيم بني أساسه على حديث رسول الله ﷺ مع أشج عبد القيس رضي الله عنه لما قال: قال لي النبي ﷺ: (إن فيك لخلقين يحبهما الله، قلت وما هما يا رسول الله؟

١ - جزء من أثر أورده السيوطي في جامع الأحاديث (٢٦/٢٩٠). والمتقي الهندي في كنز العمال (٥/٨٩٤) رقم الحديث ١٤٢٢١.

٢ - علو الهممة، لمحمد المقدم (ص ٤٤).

٣ - انظر: مدارج السالكين، لابن القيم (٢١/٢١).

٤ - سبق بيانه في هذا البحث .

قال: الحلم والحياء . قلت قديماً كان أو حديثاً؟ قال: قديماً. قلت: الحمد لله الذي جبلني على خلقين أحبهما الله.)^(١)

فهذا الحوار القائم بين الرسول ﷺ وبين الصحابي الجليل يبين لنا أثر الصفات الداخلية في الإنسان فقد تكون فطرية في جيلة الإنسان، وهي المشار إليها في الحوار بقوله: (قديمة) أو تكون مكتسبة وهي المشار إليها بقوله (أو حديثة) وفي صدد بيان هذين النوعين يقول ابن مسكوية: حالة النفس الداخلية - الصفات - تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعياً من اصل المزاج، ومنها مستفاداً بالعادة والتدرب، وربما كان مبدؤه بالرواية والفكر، ثم يستمر عليه أولاً حتى يصير ملكة وخلقاً.^(٢)

فالهمة العالية الفطرية هي: همة فطرية غريزية، جبلية، وهي رزق من الله يهبه لمن يشاء،^(٣) تتواجد مع الإنسان منذ صغره، ويتأكد هذا النوع في ظهور الهمم العالية عند كثير من صغار السن^(٤)، وربما فاقت تلك الهمم همم الكبار، ويتأكد هذا في مواقف كثيرة، منها ما ذكره القرطبي عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾^(٥) قال: إن الصبيان قالوا ليحيى عليه السلام: اذهب بنا نلعب، فقال: ما للعب خلقت.^(٦)

أما الهمة العالية المكتسبة فهي: التي تأتي بالتدريب والمجاهدة، فيتكلف أولاً، ثم يواظب ويجاهد نفسه عليها، وأعني به حمل النفس على الأعمال التي تقتضيها الهمة العالية.^(٧) من خلال مراحل تسمى بناء الأخلاق، حيث يميل الداعية بخاطره إلى خصال الهمم، ويدرك أهمية تحلي الدعاة بها، والغايات التي يمكن أن يحققها للدعوة الإسلامية إذا وصل إليها، هنا ينتقل إلى المرحلة الثانية وهي الرغبة حيث يتغلب ميل على

١ - رواه البخاري في الأدب المفرد، حديث رقم (٥٨٤) (ص ٢٠٥) وصححه الألباني في: صحيح الأدب المفرد (٢٣٣/١).

٢ - انظر: تهذيب الأخلاق، لابن مسكوية (ص ٤، ٥).

٣ - انظر: علو الهمة، لمحمد المقدم (ص ٢٤).

٤ - انظر: المرجع السابق (ص ٣٦٤ - ٣٨٠) لمزيد من الأمثلة.

٥ - سورة: مريم، الآية: ١٢.

٦ - انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٨٧/١١).

٧ - انظر: إحياء علوم الدين، للغزالي (٥٥/٣)، ومجموعة الفوائد (ص ١٧٧) وجوامع الآداب في أخلاق الأنجاب،

للقاسمي (ص ٤) والهمة العالية للحمد (ص ١٠١ - ١٠٤).

سائر الميول، فإذا عزم على الهمة صارت هذه الرغبة إرادة، وهي المرحلة التي تليها، لأن الإرادة هي: صفة النفس التي تخصص رغبة من الرغبات التي مالت إليها النفس، فإذا ما تكررت الإرادة صارت عادة، وهي المرحلة الأخيرة لاكتساب الخصلة المحمودة، والخلق الفاضل، فهذه العادة تسمى في اصطلاح التربويين الإسلاميين "همة عالية مكتسبة".^(١)

ويؤيد إمكانية تحلي الدعاة بهذا النوع من الهمم إمام الدعاة محمد ﷺ في قوله: (إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتوق الشر يوقه).^(٢) واكتساب الداعية لصفة الهمة العالية من خلال تغيير نفسه أمر مطلوب، وفيها الفلاح والنجاة، كما قرر ذلك سبحانه في قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾.^(٣)

المطلب الثالث

طريق الداعية لتحقيق الهمة العالية

وفيه ستة مسالك:

مما لا شك فيه أن حمل الدعوة شاق، وطريقه مملوءة بالصعاب، فلا تتحمله إلا النفوس الكبيرة، ولا تقوم به إلا همم الصادقين الصابرين، ولا تقدر على مواصلة السير فيه النفوس المريضة المصابة بوهن العزيمة، ونضب وقود الإيمان فيها، والداعية ذو الهمة الشريفة بما يحمله من حق لا يترخص في القعود عن دعوته عند قوة أهل الباطل وأذاهم، لأنه يرى أن الترخص هنا من شأن غير المتمسكين بنهج سلف هذه الأمة، فلهذا ترى العلماء الريانيين قادة الدعاة إلى الله متمسكين بالعزيمة، ويصدعون بالحق وإن لحقهم الأذى والعذاب، ولقد تجسدت هذه المعاني جليلة واضحة في أفضل الدعاة وخيرهم، وهم أنبياء الله ورسوله عليهم السلام.

١ - انظر: أخلاقنا، د. محمد ربيع جوهري (ص ٥٩، ٦٠).

٢ - أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه (١٢٧/٩) وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٧٠/١) حديث رقم (٣٤٢): "إسناده حسن".

٣ - سورة: الشمس الآية: ٩.

ولا يقف الداعية المجاهد أمام قول المثبتين بأن همهم هؤلاء القدوات هبة وعطايا ربانية دون عمل وسعي، ذلك لأنه ثبت بالدليل المشاهد على أن الإنسان قادر على تغيير صفاته الداخلية، وبالتالي اكتساب الأفضل، والأحسن من الأخلاق^(١). يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقَوْمٍ حَتَّىٰ يَغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِن وَالٍ﴾^(٢).

والدعاة الصادقون إلى الله لا يخفى عليهم فضل الهمة العالية، ولا قبح الهمم الدنية، وإنما حاجتهم إلى الطرق الموصلة إلى اكتساب المعالي والارتقاء بالهمم، وهذا هو مقصود هذا المطلب، لأن معالي الأمور إذا تضمنت معالمها وتبينت سبيل اكتسابها كان ذلك أدعى للتخلي بها.^(٣) لهذا سيكون هذا المطلب في بيان أهم الطرق التي من خلالها يمكن للداعية تحصيل الهمة العالية ويكون ذلك تحت المسالك التالية:

المسلك الأول:

اللجوء إلى الله تعالى وطلب العون منه سبحانه

وهذه أجل الطرق وأعظمها، وهو أن يجعل الداعية همته مرتبطة بحول الله تعالى وقوته، وفي هذا يقول ابن القيم: إن الله سبحانه أبقى أن يجعل ذخائره في قلب فيه سواه، وهمته متعلقة بغيره، وإنما يودع ذخائره في قلب يرى الفقر غنى مع الله، والغنى فقراً دون الله، والعز ذلاً، ودونه، والذل عزاً معه، والنعيم عذاباً، ودونه، والعذاب نعيماً معه، فلا يرى الحياة إلا به ومعهم، والموت والألم والهم والغم والحزن إذا لم يكن معه، فهذا له جنتان، جنة في الدنيا معجلة، وجنة يوم القيامة^(٤). فالسعيد كل السعد، والموفق كل التوفيق من لم يلتفت عن ربه وخالفه تبارك وتعالى يميناً ولا شمالاً، فالله لا يزال يرفعه طبقاً بعد طبق و منزلاً فوق منزل، لأنه جعل الهم همماً واحداً في الله، إلى أن يوصله إلى تحصيل همته العالية^(٥).

١ - سبق بيانه في هذا البحث .

٢ - سورة: الرعد، الآية: ١١.

٣ - انظر: مدارج السالكين، لابن القيم (٣/٢٨١) وعلو الهمة، لمحمد المقدم (ص ٢٧٤، ٢٧٥) والهمة العالية، لمحمد الحمد (ص ١٠٤).

٤ - انظر: الفوائد، لابن القيم (ص ١٩٦).

٥ - انظر: مدارج السالكين، لابن القيم (٣/٢٨١).

وهذه الطرق لها أبواب كثيرة يستطيع الداعية الولوج منها جميعاً وهذا من تمام
نعمة الله على عباده وهذه الأبواب هي:

باب الدعاء: فإذا أراد الداعية باباً واسعاً لمزاحم له فيه، ويقربه من الله تعالى،
فليدخل من باب الدعاء، لأن في الدعاء ذل وانكسار وخضوع وافتقار للرب سبحانه، الذي
بيده صلاحه وفلاحه وهداه وسعادته، وهذا الانكسار له تأثير عجيب في علو همة
الشخص، حيث يفتح له أبواباً من النجاح ما كانت لتفتح من غير الدعاء والاتجاء لله
سبحانه، وإن كانت سائر الأعمال والطاعات تفتح للداعية أبواباً من الرضا، لكن الذي يفتح
من الدعاء فيه تميز عن باقي القربات لأنه يشعر الداعية بعجزه ونقصه وحاجته لله
سبحانه،^(١) وبالمقابل فإن سلاح الدعاء مع يسره ووجوده إلا أن الإنسان العاجز ضعيف
الهمة يفوت عليه ولا يحصله، كما بين ذلك عليه السلام بقوله: (أعجز الناس من عجز
عن الدعاء)،^(٢) وفي المقابل فقد أرشدنا الرسول ﷺ إلى طريق الدعاء للوصول إلى أمانى
الهمة العالية بقوله: (إذا تمنى أحدكم فليكثر - أي من الدعاء - فإنما يسأل ربه عز
وجل).^(٣)

باب التقوى: فتقوى الله هي أعظم باعث على الشجاعة والقوة في الحق، فالداعية
الذي عرف ربه وقدره حق قدره؛ بأن جعل بينه وبين حدود الله حاجزاً بإتباع أوامره
واجتناب نواهيه، هانت عليه الدنيا، وزال عن قلبه مهابة المخلوقين فالتقوى ستكون له
بمثابة العدة في الشدائد، وهي مبعث القوة ويقين القلوب في الفتن، وهي معراج السمو
إلى المعالي، ويؤكد الشيخ محمد الخضر حسين - رحمه الله - هذه المعاني في باب
التقوى بقوله: ومن تفقه في التقوى عرف أنها الوسيلة الكبرى للعظمة الصادقة، فإنها
بذل الإنسان جهوده وسعيه في طريق الفلاح. ومن تقوى الرجل الذي رزق المعية

١ - انظر: صلاح الأمة في علو الهمة، د. سيد العفاني (٢٩٩/٧).

٢ - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٩٣/١١) حديث رقم (٨٣٩٢) وحسن إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة
(١٠٠/٢) رقم الحديث (٦٠١).

٣ - أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٣٠١/٢) حديث رقم (٢٠٤٠) وصح إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة
(٣٤٠/٣) حديث رقم (١٢٦٦).

متوقدة، وهمة سامية أن يقتحم الأخطار، ويقذف نفسه في معالي الأمور، فإذا هوفي جلال وعظمة، وإن لم يجد الزهو والكبر إلى نفسه منفذاً.^(١)

باب الذكر: ذكر الله تعالى باباً مهماً لنيل الهمة العالية، ذلك لأن قوة القلب وسكونه وطمأنينته متعلقة بالذكر، وقد بين ذلك سبحانه في قوله: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٢) فإذا سكن القلب هانت كل الصعاب وانطلق الداعية إلى تحقيق هدفه وهمة بقوة يستمدّها من القوي الذي لا يغلب، يقول ابن القيم: (إن الذكر يعطي الذكر قوة، حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لم يظن فعله بدونه، وكلمة - لا حول ولا قوة إلا بالله - لها تأثير عجيب في معاناة الأشغال، والدخول على الملوك ومن يخاف، وركوب الأهوال، ولها أيضاً تأثير في دفع الفقر.^(٣)

باب التوكل: وسر التوكل هنا إنما يظهر من حقيقة التوكل، الذي يعني توجه قلب الداعية إلى الله حال نصره الدين، واستمداد المعونة منه، والاعتماد عليه سبحانه وحده، وهذا من أقوى الأسباب في حصول المقصود، ودفع المكروه، فاعتماد القلب على قدرة الله وعظمته يستأصل جراثيم اليأس، ومنابت الكسل، ويشد الأمل الذي يلج بالداعية إلى أغوار البحار العميقة، ويتابع بها السباع الضاربة في فلواتها^(٤)، ولهذا ما جمع قوم بين الأخذ بالأسباب، وقوة التوكل على الله إلا أحرزوا الكفاية لأن يعيشوا أعزة سعداء.^(٥) ويكفي الداعية أنه بتوكله على الله يكون في معية الحي الذي لا يموت ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾.^(٦) وأنه بذلك ضامن للعاقبة الطيبة لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرُّكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.^(٧) لذلك فهو يمضي بهمة عالية، لأنه يعلم يقيناً أنه

١ - انظر: رسائل الإصلاح، للعلامة محمد الخضر حسين (٨٧/٢).

٢ - سورة: الرعد، الآية: ٢٨.

٣ - انظر: الوابل الصيب، لابن القيم (ص ١٠٦، ١٠٧).

٤ - انظر: الهمة العالية، لمحمد الحمد (ص ٢٠٨، ٢٠٩).

٥ - انظر: الفوائد، لابن القيم (ص ١٢٩) ومدارج السالكين (١١٢/٢-١٣٧).

٦ - سورة: الفرقان، الآية: ٥٨.

٧ - سورة: آل عمران، الآية: ١٦٠.

بتوكله يكون محبوباً عند الخالق سبحانه : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾^(١).

باب الإخلاص: وباب الإخلاص هو الإطار العام لكل ما سبق، وهو المقصود الأعظم في طريقهمة العالية وفي بيان ذلك يقول ابن القيم: لقاحهمة العالية النية الصحيحة، فإذا اجتمعتا بلغ العبد غاية المراد، ونسيان رؤية المخلوقين بدوام النظر إلى الخالق يحث على الأخذ بمعالى الأمور، والفقهم كل الفقه هو الفقه في مذاهب الإخلاص، وتصفية العمل من شوائبه.^(٢)

ولأهمية الالتجاء إلى الله في حصول التوفيق للهمة العالية، كان لازماً على الداعية أن يتعاهد ذلك في علاقته بربه، فالإيمان يزيد وينقص ويبلى، يقول ﷺ : (إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم).^(٣)

المسلك الثاني:

طلب العلم والبصيرة في الدين

فالعالم زاد الداعية في طريقه، وهو من أسباب نيله همة حسنة، ذلك لأن العلم يورثه الفقه بمراتب الأعمال، فيتقي فضول المباحات التي تشغله عن أولوياته في الدعوة إلى الله، لذا يقول ابن القيم: "إن السالك عمل حسب علمه بمراتب الأعمال ونفائس الكسب، تكون معرفته بالزيادة والنقصان في حاله وإيمانه".^(٤)

والداعية الذي يستوي عنده العلم والجهل، أو كان قانعاً بجهله لا تكون له همة أصلاً، فالعلم يرتقي بالهمم ويربطها بالبصيرة الدعوية التي هي من أهم خصائص الداعية المتأسى بالنبى صلى الله عليه وسلم، وما عداه فهو داعية ضلالة وشر؛ حيث حكى القرآن عن مدى ارتباط الدعوة إليه سبحانه بالبصيرة فقال سبحانه على لسان خير الدعاة

١ - سورة: آل عمران، الآية: ١٥٩.

٢ - انظر: الفوائد لابن القيم (ص ٢٠٠).

٣ - أخرجه الحاكم في المستدرک، حديث رقم (٥٠٥/١) وقال رواه مصريون ثقات، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني

في السلسلة الصحيحة (١١٣/٤) حديث رقم (١٥٨٥).

٤ - مدارج السالكين، لابن القيم (١/١٤٥).

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١).

ويبين الإمام ابن القيم دور البصيرة في رفع الهمم بقوله: (العزيمة لقاح البصيرة فإذا اجتمعنا نال صاحبها خير الدنيا والآخرة، وبلغت به همته من العلاء كل مكان، فتخلف الكمالات إما من عدم البصيرة، وإما من عدم العزيمة).^(٢)

وأما عن كيفية عمل العزيمة في رفع الهمم، فمعلوم أن البصيرة نور يقذفه الله في القلب نتيجة العلم والمعرفة، فيرى الداعية بهذا النور حقيقة ما أخبرت به الرسل عليهم السلام، الذين هم أول وأفضل من دعوا إلى الله تعالى، فيميز حيث الداعية بين الحق والباطل والخبيث والطيب، فهذه هي فراسة الدعاة الصادقين وبصيرتهم التي تقتفي دائماً طرق الرسل الذين رزقوا علماً، وأعينوا بقوة العزيمة على العمل، ولهذا كان الجهل مانعاً من كشف عيوب النفس، وآفات الأعمال العائقة عن سلوك طريق المرسلين، فهذا باب العلم من أنفع الطرق، وأشرفها للداعية للتزود من العلم الصحيح حتى تكون لدعوته قيمة، ويكون هو بصيرة من أمره، محتفياً بهمة شريفة ونهج سليم.

المسلك الثالث:

الوقوف مع النفس محاسبة ومجاهدة

إن النفس التي بين جنات الإنسان ذات علاقة بالهمة سلباً أو إيجاباً، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾^(٣).

لذا كان الواجب على الداعية الإيجابي أن يعمل على استثارة همته وتحريك إرادته، لأن كثيراً من الناس تكمن الهمة في نفوسهم كمون النار في الزند، وهذه الهمة تحتاج إلى من يقدر زندها ويشعلها.

١ - سورة: يوسف، الآية: ١٠٨.

٢ - انظر: الفوائد، لابن القيم (ص ٢٦٠).

٣ - انظر: مدارج السالكين، لابن القيم (١٣٧/١).

٤ - سورة: الشمس، الآية: ٧-١٠.

واعترافات الداعية بقصور همته ، هم نوع من محاسبته لنفسه، وهو أول الطريق للنهضة بهمته، ومع هذا لابد أن يعتقد الداعية بقدرته على أن يكون من أهلها، فهذان عاملان مهمان لاستثارة النفس في محاولة لرفع همتها، ودون هذين العاملين لا يكون الداعية قد خطا خطوة صحيحة في هذا الطريق.

ثم يأتي بعد ذلك دور **مجاهدة النفس**، فعظيم الهمة من يجاهد في سبيل العقيدة، وعكسه من يكدر في سبيل الشهوة، وهذا يحتاج من الداعية أن يقف مع نفسه وقفات صارمة وقوية، لأن الفضائل تحتاج إلى مرتبة أسد^(١)، ومما يعين الداعية على مجاهدة نفسه:

- **مقاطعة هوى النفس**: لأن اتباع هوى النفس يقودها إلى الدنو، ولذا حذر المولى من هذا الإتياع في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾^(٢)، ويقول النبي ﷺ: "ثلاث مهلكات: هوى متبع، وشح مطاع، وإعجاب المرء بنفسه"^(٣)، فأصح الناس عزماً الغالب لهواه، وفي هذا الصدد يقول علي رضي الله عنه: "إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى، وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة"^(٤).

- **محاربة الترف الزائد**: فصاحب الهمة العالية يأنف الترف والتبذير لأنه مزلق لأخوة الشيطان، يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾^(٥)، وأي خير في أخوة العدو الذي قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ لَا تَنَبَّهُهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ

١ - انظر: الهمة طريق إلى القمة، لمحمد بن موسى الشريف (ص ٥١) دار الأندلس، وصلاح الأمة في علو الهمة (٢٠٢/٧، ٣٠٤).

٢ - سورة: ص، الآية: ٢٦.

٣ - أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٢٨/٥) حديث رقم (٥٤٥٢) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٠١/٤) حديث رقم (١٨٠٢).

٤ - فتح الباري، للحافظ ابن حجر (٢٣٦/١١).

٥ - سورة: الإسراء، الآية: ٢٧.

أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ^(١). ولأجل ذلك كان تحذير السلف الصالح من الترفل في النعيم ولو كان مباحاً ليحصل تمرين النفس على مغالبة الهوى مطلقاً الذي هو سبب لسقوط المهمة وضعف العمل، يقول ابن القيم: قال لي يوماً شيخ الإسلام في شيء من المباح: هذا ينافي المراتب العالية، وإن لم يكن تركه شرطاً في النجاة. لذلك كان الداعية العارف يترك كثيراً من المباح برزخاً بين الحلال والحرام.^(٢)

- **ربط النفس بالآخرة:** وهذا من أعظم الموقظات للهمم، فالداعية إذا تذكر الآخرة وربط نفسه بها، عرف قصر الدنيا، وأنها هينة لا تساوي جناح بعوضة. ففي ربط النفس بالآخرة إحياء للقلب من قسوة الغفلة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾^(٣)، وفي ربط النفس بالآخرة قطع لطول الأمل الذي هو سبب الكسل والتسويق عن الطاعات ومعالى الأعمال يقول ابن عقيل: ماتصفوا الأعمال والأحوال إلا بتقصير الآمال.^(٤) وهذا مصداق لقوله تعالى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.^(٥)

وربط الداعية نفسه بالآخرة يدفعه لتذكر الموت، الذي يجعله دائماً في استعداد للقاء الله والتجافي عن الغرور الهادم الأكبر للهمم، يقول ابن القيم في بيان أهمية التأهب للقاء الله في دفع المهمة: صدق التأهب للقاء الله من أنفع ما للعبد وأبلغه في حصول استقامته، فإن من استعد للقاء الله انقطع قلبه عن الدنيا وما فيها ومطالبها، وخمدت من نفسه نيران الشهوات، وأخبت قلبه إلى الله، وعكفت همته على الله وعلى محبته، وإيثار مرضاته، فاستحدثت همّة أخرى، وعلو آخر، فالمقصود أن صدق التأهب هو مفتاح جميع الأعمال الصالحة، والأحوال الإيمانية، ومقامات السالكين إلى الله، ومنازل

١ - سورة: الأعراف، الآية: ١٦، ١٧.

٢ - انظر: مدارج السالكين، لابن القيم (٢/٢٦٦).

٣ - سورة: الحديد، الآية: ١٦.

٤ - انظر: كتاب الفنون، لابن عقيل (٢/٥٤٦).

٥ - سورة: الحجر، الآية: ٣.

السائرين إليه من اليقظة، والتوبة والإنابة والمحبة، والرجاء والخشية، والتفويض، والتسليم، وسائر أعمال القلوب والجوارح.^(١)

ثم إن ربط الداعية نفسه بالآخرة يبيّضه بنعيم الجنة، وعذاب النار، وهذان من أهم الأسباب لعلو الهمة، فالإنسان بطبعه لا يأتي عملاً إلا بقدر ما يرجو من نعيم ومنفعة، ولا يتعد عنه إلا بقدر ما يخشى من ألم ومشقة، فهو دائماً يوازن في الفعل بين الترك والإقدام بقدر المنفعة والمضرة، وكلما اشتدت العقوبة ابتعد، فما بالناس بنعيم الجنة، وعقاب النار، ولهذا كان ﷺ يرفع همم أصحابه رضوان الله عليهم بذكر الجنة (صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة).^(٢)

وكيف لا تعلو همة الداعية الذي ربط نفسه بالآخرة، والمبشرات في القرآن تبين هذه العاقبة يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾.^(٣)

لذا فإن الداعية الذي ربط نفسه بالآخرة سيكون بمأمن من فتن الدنيا، لأن الله سبحانه وتعالى تكفل وضمن له الحياة الكريمة والأمن، ومن كان هذا حاله كيف لا ترتفع همته، وفي بيان هذا يقول ﷺ: (من كانت همه الآخرة جمع الله له شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة...).^(٤)

- **تسليم النفس لله تعالى بوعي وحسن توكل؛** وقوف الداعية مع نفسه يحتم عليه بالضرورة أن يسلم نفسه وأمره لله تعالى، وهذا يعرف في الإصطلاح الشرعي بالإيمان بقضاء الله وقدره، وأهمية هذا الإيمان والتسليم في رفع الهمم بينه ابن القيم بقوله: "والذي يحسم مادة الخوف هو التسليم لله، فمن سلم لله، واستسلم له، وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب له،

١ - انظر: طريق الهجرتين وباب السعادتین، لابن القيم (ص ٢٧٦).

٢ - أخرجه الطبراني في الأوسط، حديث رقم (١٥٠٨) (١٤١/٢)، وقال الألباني في فقه السيرة (١٠٣) حسن صحيح.

٣ - سورة: الإسراء، الآية: ١٩.

٤ - أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤٦٧/٣٥) حديث رقم (٢١٥٩٠)، وصحح الألباني إسناده في السلسلة الصحيحة (٤٠٣/١) رقم الحديث (٤٠٤).

لم يبق لخوف المخلوقين في قلبه موضع أيضاً، فإن نفسه التي يخاف عليها قد سلمها إلى وليها ومولاها".

فلا معنى للخوف من غير الله بوجه، فهو إذا سلمها لله فقد أودعها عنده، وأحرزها في حرزه، وجعلها تحت كنفه، حيث لا تنالها يد عدو عادي ولا بغى باغات.^(١)

- **زرع الثقة في النفس**: ويكون ذلك بتذكر جوانب العظمة والقوة في النفس المستمدة من حسن اللجوء إلى الله^(٢)، فالداعية المسلم يمتلك بضائع نفيسة لا يملكها غيره من دعاه الباطل يقول سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.^(٣) وقوله ﷺ: (فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم).^(٤)

فليحرص الداعية على أن يرفع قيمة نفسه ويغلي ثمنه بعمله المفضل الذي هو وظيفة الرسل قاطبة، وليعلم أنه على الحق المبين، فهذه كلها جوانب قوة تزيد من ثقته بنفسه، وتبعثه على الإقدام للعمل بهمة عالية، لأن الذي يحيا بالثقة تحييه الثقة.^(٥)

مما سبق يتبين لنا أهمية وقوف الداعية مع نفسه في تحريك الهمم ورفعها، والذي ينبغي التأكيد عليه هنا أنه لا ينبغي أن يقف على محاسبة النفس دون عمل بعد ذلك، أو أن يشدد على نفسه محاسبة وتجريحاً لأن ذلك قد يؤدي إلى إنقاص النفس وإنكماشها،^(٦) فالاعتدال هو المطلوب كما بين ذلك ﷺ بقوله: (اكفوا من الأعمال ما تطيقون).^(٧)

١ - انظر: مدارج السالكين، لابن القيم (٣١/٢).

٢ - سبق بيانه في هذا البحث.

٣ - سورة: فصلت، الآية: ٢٢.

٤ - صحيح البخاري، باب: مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حديث رقم (٣٤٩٨) (٣/١٣٥٧٩).

٥ - انظر: الهمة العالية، لمحمد الحمد (ص ٢٦٦).

٦ - انظر: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن القيم (ص ٨٢-٨٩) تحقيق: مجدي السيد.

٧ - أخرجه البخاري، باب: القصد والمداومة على العمل، حديث رقم (٦١٠٠) (٥/٢٣٧٣).

المسلک الرابع:

التحلي بالأخلاق الإسلامية

فالداعية المتحلي بالأخلاق الإسلامية مؤهل وبجدارة لتحصيل الهمة العالية، وفي صدد بيان هذا يقول العلامة ابن القيم: "أصل الأخلاق المذمومة كلها: الكبر، والمهانة، والدناءة، وأصل الأخلاق المحمودة كلها: الخشوع، وعلو الهمة"^(١).

ومن خصائص الأخلاق الإسلامية أنها ربانية المصدر، عبادية المقصد، مثالية واقعية، شمولية متكاملة، ثابتة متوازنة، تنال بالمجاهدة وتؤخذ بالتأسي، تراعي التدرج، ذات أثر اجتماعي أكيد، وكل هذه الخصائص أسباب مهمة في رفع الهمة.

فكون الأخلاق ربانية في المصدر: هذا يعني أنها مستمدة من رب البشر، ليست رأياً بشرياً ولا نظاماً وضعياً، وهذا مهم في رفع الهمم لأنه يطرح عن الداعية خلق الخوف، ويمده بخلق الشجاعة وكلما زاد تمسكه بالأخلاق زاد سكونه وثقته بنفسه لأنه يعلم يقيناً أنه في حرز رب الأكوان وخالقها ومدبرها وهذا يزيد من همته.

وخاصية الأخلاق بأنها عبادية القصد: هذا يعني أن العبادة ترتبط بالأخلاق، فكلما حافظ الداعية على عبادات الإسلام من صلاة، وزكاة، وحج.. الخ سما بأخلاقه، وأثر ذلك على سلوكه إيجاباً، وقد جاء بيان ذلك واضحاً في كتاب الله تعالى، فعلى سبيل المثال يبين سبحانه وتعالى أثر الصلاة في السمو بخلق المسلم:

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(٢)، وعن أثر عبادة الزكاة على السلوك الإنساني يقول تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾^(٣)، وعن الصوم وأثره المفيد على الأخلاق يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٤)، ويقول ﷺ: (الصيام جنة،

١ - الفوائد، لابن القيم (٢١٠).

٢ - سورة: العنكبوت، الآية: ٤٥.

٣ - سورة: التوبة، الآية: ١٠٣.

٤ - سورة: البقرة، الآية: ١٨٣.

فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه، فليقل: إني صائم، إني صائم^(١). وفي عبادة الحج يقول سبحانه: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾^(٢).

ويقول صلى الله عليه وسلم: (من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه)^(٣).

وكون الأخلاق الإسلامية مثالية وواقعية: هذه الخاصية تدعو الداعية إلى السمو بذاته وأفعاله، مع مراعاة نفسيته واحتياجاته وقدرته على الارتقاء؛ حيث أنها لا تطالبه بما هو فوق طاقته عملاً بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾^(٤).

وخاصية شمولية الأخلاق وتكاملها: هذه الخاصية تعني أن الأخلاق تشمل جميع جوانب حياة الداعية، مع ربه، ومع الناس في بيته، وفي عمله، وفي خلوته، بل وحتى في وجدانه، وكل هذه الجوانب تحتاج لأخلاق عالية مؤثرة علة تصرفات الشخص، لذلك فهي تدعو الداعية إلى التمييز بالسلوك الفاضل في جميع مجالات الحياة وبصورة متكاملة.

وخاصية ثبوت الأخلاق الإسلامية: تحقق الأصالة في نفس الداعية، بحيث يصدر منه سلوكاً واحداً ثابتاً مع المواقف المتكررة نفسها، فلا يتغير سلوكه حال تعامله مع الضعفاء أو الأقوياء، ولا مع الفقراء والأغنياء، ولا حال رضاه وغضبه، وهذا بالتالي يزيد من مصداقيته مع من حوله من المدعوين، وأيضاً مع نفسه وهذا سر من أسرار نجاح العظماء.

وفيما يخص خاصية التوازن في الأخلاق الإسلامية: أنها لا تغلب خلقاً على آخر، فكل الأخلاق مطلوبة دون تغليب أحدها، أو إغفال بعضها، وهذا أمر مهم للداعية لرسم

١ - أخرجه البخاري، كتاب الصيام، باب: فضل الصوم (٦٧٠/٢) حديث رقم (١٧٩٥)، وأخرجه مسلم نحوه في كتاب الصيام، باب: حفظ اللسان وفضل الصيام، حديث رقم (١٥٩) (٨٠٦/٢).

٢ - سورة: البقرة، الآية: ١٩٧.

٣ - صحيح البخاري، باب: فضل الحج المبرور، حديث رقم (١٤٤٩) (٥٥٣/٢).

٤ - سورة: فصلت، الآية: ٣٣.

معالم شخصيته التي لولاهما لاندثرت تلك المعالم وصارت الشخصية ممسوخة لا قبول لها عند المدعويين، فعلى سبيل المثال: الداعية الذي غلبت عليه أخلاق الصراحة، والجرأة والنصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى تخرجه من شكلها الشرعي، ربما شك المدعون من سوء تعامله وقلة احترامه، وإن غلبت عليه أخلاق العفو والسماحة والتواضع والسكينة، ربما يلجأ إلى الذلة والخوار وهكذا. إذاً فالأخلاق الإسلامية كما أنها متكاملة، فهي أيضاً متوازنة تدعو إلى العزة دون جبروت وتكبر، كما تدعو إلى الانتصار والعفو والهمة باحترام وتواضع.

أما فيما يتعلق بخاتبة نيل الأخلاق بالمجاهدة: فهذه الخاتبة مهمة لتصوير الداعية ودفعه لبناء أخلاق إسلامية، والتخلص من الأخلاق السيئة، فلا عبرة بقول المثبطين: أن الأخلاق لا تتغير، وأن الطباع موروث لا تتحسن، فالرسول ﷺ يقول: (من يستعفف يعفه الله، ومن يتصبر يصبره الله) ^(١) وهكذا في كل الأخلاق، فالداعية يستطيع بالمجاهدة أن يكون شجاعاً، وبالتسامح يصبح سمحاً، وبالجدود يصبح كريماً، وبالتورع يصبح تقياً، والسعيد من يوفقه الله للصبر على المجاهدة إلى أن تتأصل في نفسه الأخلاق الفاضلة.

وخاتبة إمكانية أخذ الأخلاق بالتأسي: يفيد الداعية في الحرص على التخلق بهذه الأخلاق والسعي إليها دون تردد، لأنه يعلم يقيناً إمكانية أخذها وتطبيقها، وأنها ليست بالشيء المحال الذي لا يمكن تطبيقه، وأمر آخر أن الداعية في محل القدوة من المدعويين بأخلاقه وصفاته وسلوكه، لهذا فإنه يحرص على نيل المعالي بهمة سامية على قدر المسؤولية المناطة على عاتقه. ^(٢)

مما سبق يتبين لنا بجلاء أن التحلي بالأخلاق الإسلامية من أهم أسباب اكتساب الهمة العالية، فالأخلاق الإسلامية كلها فضائل وخصال من الخير العالية، فهي من أعظم مقدمات الهمة العالية، ومن خلال ذكر الأمثلة لبعض الأخلاق تتبين هذه الحقيقة، فعلى سبيل المثال: **خلق الإخلاص** له تأثير عظيم في علو الهمة لأنه يرفع شأن الأعمال حتى

١ - رواه البخاري في كتاب الزكاة، باب: لا صدقة إلا عن ظهر غنى (١١٢/٢) حديث رقم (١٤٢٧). وأخرجه مسلم في كتاب الزكاة، باب: فضل التعفف والصبر (٧٢٩/٢).

٢ - انظر: هذه أخلاقنا عندما نكون مؤمنين حقاً، لمحمود محمد الخزندار (ص ١٩-٢٢) دار طيبة، ط السابعة ١٤٢٣هـ.

تكون مراقي للفلاح، والإخلاص هو الذي يحمل الإنسان على مواصلة الخير، فمن يصلي خجلاً أو رياء لا بد أن تمر عليه أوقات لا ينهض فيها للصلاة، وكذلك فإن الإخلاص يجعل في عزم الداعية متانة، ويربط على قلبه فيمضي في عمله إلى أن يبلغ الغاية بحزم وإتقان، وكذلك **خلق السخاء** الذي يقوم ويتصل بفضائل أخلاقية أخرى تعد من مقومات الهمة العالية كالرحمة، وقلة الحرص على جمع المال، والحلم، والعفو، والإنصاف، فالسخي يؤدي حقوق الناس من تلقاء نفسه، وإذا قضى كان عادلاً، ولا تطمع نفسه إلى رشوة، ولا يأخذ حق ضعيف إلى قوي، والسخي أقرب الناس إلى الشجاعة وعزة النفس، وكل هذه الأمور مقاصد رفيعة الشأن ذات تأثير على السيادة والرفعة بين الناس، كذلك من الأمثلة البينة **سجية القناعة** فهي من أنفع الصفات التي تحرر الإنسان من قيود الشهوات، فالشَّره أسير لشهواته، فكلما نالت نفسه شهوة من الدنيا تاقت نفسه لغيرها، فمن كانت هذه أخلاقه أنى له أن يرتقي بنفسه! ومن أراد أن يكون متناً في الفضل، عالياً في ذرى المجد، حاكياً قصب السبق بخيري الدنيا والآخرة، فعليه **بخلق الصبر** ^(١)، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوقَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ^(٢)، ومن كان متصدياً للدعوة والإصلاح، فهو أشد حاجة للصبر من غيره، لأن هذا السبيل شاق لا يقتحمه إلا ذوو الهمم الكبيرة، لذا قالت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها لمحمد ﷺ لما جاءها في أول الدعوة يرتجف خوفاً: "لم يؤت أحد بمثل ما أوتيت ألا أؤذي"، وفي صدد تأكيد هذه المعاني يقول الفاروق عمر رضي الله عنه: "وجدنا خير عيشنا بالصبر" ^(٣).

المسلك الخامس:

الشعور بمسؤولية الدعوة إلى الله

إن استشعار الداعية مسؤولية الدعوة، إنما هو نتاج لإيمانه العميق بما يدعو إليه، فبقدر إيمانه بدعوته، وإدراكه لسموها؛ فإن مساحة المسؤولية تجاهها تزداد. فالداعية ذو الهمة العالية يخوض معركة الحياة بعزم وإيمان، فلا يفتعل الأعذار للتخلص من

١ - انظر: الهمة العالية، لمحمد الحمد (ص ٢١٨، ٢١٧، ١٦٦، ١٦٠).

٢ - سورة: الزمر، الآية: ١٠.

٣ - عدة الصابرين، لابن القيم (ص ٧٧).

الواجبات، ولا يختلق الأسباب للتنصل من المسؤولية التي أوجبها الله عليه في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(١)، فينهض بأعمال الدعوة بعزم دون تردد، يقوده التنافس في الخيرات إلى المسابقة في القربات، وأهمية هذا في رفع الهمم بيننا ابن القيم بقوله: ليس للعبد شيء أنفع من صدقه ربّه في جميع أموره، مع صدق العزيمة التي لا تشوبها تردد ولا تلوم، فعزيمة الصدق تمنعه من ضعف الإرادة والهمة، وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفطور ومن صدق الله في جميع أموره، صنع الله له فوق ما يصنع لغيره.^(٢)

والشعور بالمسؤولية يحتم على الداعية الاعتناء بالوقت، واليقظة لما يدور حوله بفكر ثابت، وحذر شديد، فالوقت هو ساعات عمر الإنسان، وهو أنفس ما عني بحفظه، لأن ما فات من الزمن لا يعود. وإذا كان رأس مال الداعية هم المدعوين، فإن الزمن هو المادة الخام له كالخشب الخام في يد النجار، والحديد الخام في يد الحداد، فالداعية الحكيم ذو الهمة العالية من يقدر الوقت حق قدرة ولا يتخذ عواء لأبخس الأشياء، بل تراه مهتماً على نفع الدعوة والمدعوين، يقول ابن الجوزي: "ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه وقدر وقته، فلا يضيع لحظة في غير قربة، بل يقدم الأعلى على الأدنى من القول والعمل".^(٣)

إن اغتنام الأوقات، واستغلال الفرص، دليل على الحزم، وعنوان العقل والجد، وآفة الجد التسويف والتأجيل، ولا يسلم من هذه الآفة إلا من سلمه الله من أصحاب الهمم العالية، والنفوس الأبية، والإرادات القوية، وفي المقابل فإن التسويف والتأجيل هما سبب للحسرة والندامة، وتراكم الأعمال وصعوبة الأداء.^(٤)

لذا كان المنبغي على الداعية أن يتيقظ لمسؤولياته، وينتبه لأوقاته، ليكون في مأمن من رقدة الغافلين، الذين غشيتهم سكرات اللامسؤولية حتى أطاحت بهمهمهم، وقد

١ - سورة: آل عمران. الآية: ١٠٤.

٢ - انظر: الفوائد لابن القيم (ص ٢٤٤).

٣ - صيد الخاطر، لابن الجوزي (٣/١).

٤ - انظر: الهمة العالية، لمحمد الحمد (ص ٢٤١، ٢٠٧، ٥٢).

عبر ابن القيم عن أهمية هذه الیقظة بقوله: الیقظة هي انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين، والله ما أنفع هذه الروعة!! وما أعظم قدرها وخطرها!! وما أشد إعانتها على السلوك!! فمن أحس بها فقد أحس بالفلاح، وإلا فهو في سكرات الغفلة، فإذا تنبه شمر الله بهمته إلى السفر إلى منازل وأوطانه الأولى، وإذا استحكمت الیقظة أوجبت له الفكرة، وهو تحديق القلب إلى جهة المطلوب التماساً له.^(١)

المسلك السادس:

التحول عن البيئة المثبطة للهمم

البيئة الرافعة للهمم قد تكون بيئة تطبيقية خارجية كصحبة أهل الهمم، وتشجيع الصالحين، ومشاهدة القدوات، وقد تكون بيئة نفسية نتلمس آثارها في رفع الهمم، كسماع سير الصالحين أولى الهمم، وقراءة سير الدعاة الناجحة، ويغلف هذا الصنف وذاك الأجواء الإيمانية، المحركة الأساسية للهمم؛ لذا كان لزماً على الداعية الباحث عن الهمة العالية أن يكون ذا حذر زائد حال وجوده في بيئات وأجواء غير إيجابية وبيان ذلك على النحو التالي:

أولاً: البيئة غير الإيمانية:

إن في بعد الداعية عن الأجواء الإيمانية مدعاة لضعف الإيمان وضعف الهمة، فالمسلم دائماً يستمد قوته من خالق الأكوان ومدبرها، ثم إن المؤمن قليل بنفسه كثير بإخوانه، واستمرار هذا الابتعاد يخلف وحشة، تنقلب بعد حين إلى نفرة من تلك الأجواء الإيمانية، يقسو على أثرها القلب ويظلم، ويخبوا فيه نور الإيمان، وهذا مصداق لقوله تعالى: فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ^(٢).

ولهذا كانت الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام فرضاً واجباً، وكان أشد الناس حاجة لتجديد البيئة المحيطة حديثي عهد بالتوبة، فإن من شأن المتحول من بيئة المعصية إلى بيئة الطاعة أن يجذبه صحبة السوء فتتهار همته وتتوجه إلى السفول، وهذا

١ - انظر: مدارج السالكين، لابن القيم (١/٢٣٣، ١٤٥).

٢ - سورة: الحديد، الآية: ١٦.

عين ما أشار به العالم الواعي على قاتل المائة بقوله: (انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى، فأعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء).^(١)

ثانياً: بيئة تطبيق الدعوة:

وهي البيئة الحقيقية التي يتلمسها الداعية ويشاهدها عياناً أو حتى يسمع بها، تكون خارج ذاته ونفسه يطبقها مع الآخرين، وتتمثل في مصاحبة الأخيار أولي الهمم العالية، فهذه البيئة من أعظم ما يبعث على الهمة، فالإنسان مولع بمحاكاة من حوله، شديد التأثير بمن يصاحبه، وقد قيل: الطيور على أشكالها تقع، وكل قرين بالمقارن يقتدي، و مصداق هذا قول النبي ﷺ: (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)^(٢)، والصاحب صاحب فإما أن يعينه على الخير، أو يقصره على الشر، ولا ثالث بعد ذلك، فإذا وفق الداعية لصحبة الأجلاء من ذوي الدين والمروءة، فذلك من مهيئات نبوغه وتوفيقه. يقول الفضيل بن عياض: نظر المؤمن إلى المؤمن يجلو القلب، ومن جلس مع صاحب بدعة لم يعط الحكمة.^(٣) ونتلمس أثر صحبة ذوي الهمم العالية في التسابق إلى الخيرات في سيرة السلف الصالح، فهذا ابن القيم يحكي عن شيخه ابن تيمية قائلاً: وعلم الله مارأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً وأشرحهم صدرأ، وأقواهم قلباً، وأسرهم نفساً، تلوح نظرة النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت بنا الظنون، وضائق بنا الأرض، أتيناها، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه، فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحاً وقوة ويقيناً وطمأنينة.^(٤)

١ - أخرجه مسلم في كتاب التوبة، باب: قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٢١٨/٤).

٢ - أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٤٢/١٤) حديث رقم (٨٤١٧)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٩٧/٢) حديث رقم (٩٢٧).

٣ - انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي (٤٣٥/٨).

٤ - الوابل الصيب، لابن القيم (ص ٦٧).

فالداعية الحريص الذي يروم المعالي لا بد وأن يجالس الأبرار، ويتمسك بهم، ويظهر مجالسه من أهل الفسق و الفجور، يقول الفاروق رضي الله عنه: "مأعطي عبد بعد الإسلام خيراً من أخ صالح، فإذا رأى أحدكم ودّاً من أخيه فليتمسك به".^(١)

وقد تتعذر بيئة الصحبة الصالحة، فهنا لا يقف الداعية مكتوف اليدين بل ينبغي أن يعدل من الصحبة إلى **مطالعة أخبار الأولين**، وسماع أحوالهم، وما كانوا عليه من التيقظ للدقائق والثواني، ومثال ذلك: قراءة كتب التراجم والسير، فهذه وسيلة مباركة لإشعال العزائم، وإثارة الروح الوثابة، وقدح للمواهب، وإذكاء للهمم، وتقويم للأخلاق، والتسامي للمعالي، والترفع عن السفاسف يقول سبحانه: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾.^(٢) ويوضح الإمام ابن الجوزي للداعية أثر في هذه الوسيلة في شحن الهمم بقوله: سبيل طالب الكمال الاطلاع على الكتب التي تخلفت من المصنفات، فليكثر من المطالعة، فإنه يرى من علوم القوم، وعلو همهم ما يشحن خاطرة، ويحرك عزمته للمجد، ونعوذ بالله من هؤلاء الذين نعاشرهم، ولا نرى فيهم ذا همة عالية، فالله الله وعليكم بملاحظة سير السلف، ومطالعة تصانيفهم وأخبارهم فمطالعة كتبهم رؤية لهم، وقد استفدت بالنظر والاطلاع على أكثر من عشرين ألف مجلد من ملاحظة سير القوم وقدر همهم، وحفظهم وعبادتهم، وغرائب علومهم، ما لا يعرفه من لم يطالع، فصرت أستزري ما الناس فيه، وأحتقرهم الطلاب، والله الحمد.^(٣)

كذلك فإن من أقوى البواعث على ارتفاع الهمة في هذا الجانب **مطالعة القرآن** وتدبره، يقول ابن القيم رحمه الله: "حقيق بالإنسان أن ينفق ساعات عمره، و جل أنفاسه، فيما ينال به المطالب العالية، ويخلص من الخسران المبين، وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن، وبفهمه وتدبره واستخراج كنوزه وإثارة دفائنه وصرف العناية إليه، والعكوف بالهمة عليه، فإنه الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد".^(٤)

١ - قوت القلوب في معاملة المحبوب، لمحمد بن علي بن عطية (٢/٣٦٠).

٢ - سورة: هود، الآية: ١٢٠.

٣ - انظر: صيد الخاطر، لابن الجوزي (ص ١٤٩).

٤ - مدارج السالكين، لابن القيم (٦/١).

ويفيد في هذا الجانب كثيراً **سبر فقه الدعوات السابقة** والمتمثلة في سير الأنبياء والرسول عليهم السلام، وعلى رأسهم سيرة محمد ﷺ، فإنهم القدوات، وسيرتهم مما يشحن الهمم، ويكفي الداعية قول الله تعالى عنهم: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ، وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾.^(١)

ثالثاً: البيئة النفسية؛

و المراد بها المعاني والصفات التي توجد داخل النفس الإنسانية، ولها أثرها في رفع الهمم ودفعها للمعالي. فتوفير البيئة السعيدة والمفرحة للنفس الإنسانية من أكثر الأسباب لاكتساب الهمة العالية. ويخطئ كثير من الناس حين يظنون أن أسباب السرور كلها في البيئة الخارجية المادية كالمال والصحة والسكن، ذلك لأن إسعاد البيئة الخارجية تعتمد على النفس أكثر من اعتمادها على الظروف الخارجية، وفي الناس من يشقى مع موجود النعيم المادي، ولا يستطيع التيسم بكل املاكه، ومنهم من ينعم ويتنعم رغم شقائه، ويتسم دائماً من أعماقه.

ولوجدنا بمثال من واقع الصفات النفسية لوجدنا أن **التفاؤل** صفة تبعث صاحبها على الهمة، وتدعوه إلى طرح الكسل، وإلى الإقبال على الجد والعمل، **بخلاف التشاؤم** فإنها صفة فاترة للهمة، تولد التبلد والكسل، ولا تدفع إلى هدف ولا غاية، مصاحبها دائماً سيء الظن بالآخرين، منغلق على نفسه، ضيق الصدر، يتقد حسداً، ويحترق غيرة وكمداً، و لعجزه هذا يعيش على هامش الحياة صغير الشأن، حامل الذكر.

لهذا ينبغي للداعية أن يتخلص من أمثال هذه البيئات ولا يستسلم لها، فالإغراق في التشاؤم، والاسترسال في اليأس، والخوف من المكروه، كل هذه بيئات معنوية تضعف الحياة وتقلل الانتاج، وتضاعف البؤس والشقاء.^(٢)

ومما سبق نخلص إلى أن همة الداعية ترتبط بما يحيط به من بيئات مختلفة، لذا من الأهمية بمكان تحول الداعية عن البيئات المثبطة للهمم.

١ - سورة: الصافات، الآية (١٧٢، ١٧١).

٢ - انظر: كتاب علو الهمة، لمحمد المقدم (ص ٣٥٢)، وكتاب صلاح الأمة في علو الهمة، د. سيد العفاني (٢٧٣/٧)، ٢٧٤، ٣٣٢، ٣٤٤). وكتاب الهمة العالية، لمحمد الحمد (ص ٢١١، ٢١٢، ٢١٥).

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، وأسأل ربي المنان أن تجد هذه الصفحات قبولاً في قلوب الدعاة وأثراً في دعوتهم. فقد تبين لنا أن علو الهمة في الدعوة إلى الله صفة سامية موصلة لكل أبواب الخير، وأسمى ما فيها أنها افترنت بشرف المقصد وهو الدعوة إلى الله تعالى. كذلك فإن دوران الهمة العالية في فلك الأخلاق الإسلامية، وسيطرتها على معظم الأخلاق، يزيد من قيمتها في الدعوة إلى الله تعالى، والدعوة الإسلامية ستفقد كثيراً من حيويتها وقدرتها في نفوس المدعوين إذا تولى زمامها دعاة غير أكفاء في مجال الهمة، خلقاً وسلوكاً.

كذا مما يدعو الداعية أن يكون ذا همة عالية في مجال الدعوة إلى الله تعالى؛ كون إمكانية إكتساب هذه الصفة وتحصيلها بطرق سهلة ميسرة واضحة المعالم – كانت هي مجال هذا البحث – يستطيع الداعية من خلالها التحلي بها ومن ثم الإرتقاء إلى المعالي بشخصه، ودعوته.

لذا فإن تحلي الداعية بصفة الهمة العالية من الأمور المهمة في الدعوة إلى الله، كيف لا يكون كذلك وهي التي تشحن الداعية للانطلاق بقوة وعزيمة، كالمطائر الذي استعلى بجسمه عن الدنيا والسواقط، فهو لا يرضى بالدون، ولا يصير عبداً لشهواته الخسيسة، بل ويجتهد لتحرير الفضائل قاصداً بذلك رفعة دينه ودعوته.

التوصية: ومع أهمية وقيمة الهمة العالية كصفة للداعية، إلا أن البحث لم يتطرق إلى خصائصها، وقيمتها، وأهميتها، ومميزاتها للدعوة الإسلامية حرصاً على الإيجاز وتركيز المعلومة فيما يكسب الداعية هذه الصفة، بل إن هناك نماذج بشرية رائعة لمن تحلّى بالهمة العالية، ووضعوا خطوطاً واضحة لها، إلا أن البحث أيضاً لم يتطرق لتلك النماذج للسبب ذاته. من هنا أقول: ليت أبحاثاً علمية أخرى تهتم بهذه الجوانب، وتكمل هذا المشوار المهم، ليكون نبزاً يتخذ في مجال الدعوة إلى الله، وهذه هي أبرز توصية في البحث.

وصلى الله على نبيينا وعلى آله وأصحابه وأتباعه وبارك وسلم

الله أنفعنا بما علمتنا وعلمنا ما ينفعنا

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



فهرس المصادر والمراجع:

- (١) أدب الدنيا. والدين لأبي الحسن الماوردي. دار الكتب العلمية. بيروت لبنان ٢٠٠٣م.
- (٢) الأدب المفرد، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، الناشر: دار البشائر الإسلامية - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩ - ١٩٨٩م، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
- (٣) تاريخ بغداد، لأحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.
- (٤) التعريفات، المؤلف: علي بن محمد بن علي الجرجاني، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، تحقيق: إبراهيم الأبياري.
- (٥) تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- (٦) تهذيب الأخلاق، المؤلف: الجاحظ، القاهرة، الناشر: دار الصحابة للتراث.
- (٧) تهذيب الأخلاق، لابن مسكويه، الطبعة الثانية - بيروت، دار الكتب العربية، ١٤٠١هـ ١٩٨١م.
- (٨) جامع الأحاديث، لجلال الدين السيوطي، الناشر: دار المعرفة - بيروت، ط. الأولى ١٤٢٠هـ.
- (٩) الجامع الصحيح سنن الترمذي، المؤلف: محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- (١٠) الجامع لأحكام القرآن، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي القرطبي، المحقق: هشام البخاري، الناشر: دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة: ١٤٢٣هـ.
- (١١) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، المحقق: محمد الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ.
- (١٢) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، لعبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل الناشر: دار إحياء الكتب العربية - مصر، الطبعة: الأولى ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.
- (١٣) كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة، المؤلف: أبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٠م.
- (١٤) الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة، المؤلف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ١٣٩٥ - ١٩٧٥.
- (١٥) السلسلة الصحيحة، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني الناشر: مكتبة المعارف - الرياض.

- (١٦) سنن ابن ماجه. المؤلف : محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني ، الناشر : دار الفكر - بيروت، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي.
- (١٧) سير أعلام النبلاء، للذهبي، الناشر: دار الفكر - بيروت.
- (١٨) شعب الإيمان . المؤلف : أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوُجَرْدِي الخراساني، أبو بكر البيهقي تحقيق د. عبد العلي حامد، ومختار الندوي، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض. الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
- (١٩) صحيح البخاري: الجامع الصحيح المختصر. المؤلف : محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، الناشر: دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ - ١٩٨٧، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا.
- (٢٠) صحيح الجامع الصغير وزيادته، لمحمد ناصر الدين الألباني ، الناشر: المكتب الإسلامي.
- (٢١) صحيح مسلم. لأبي الحسين مسلم بن الحجاج العشيري النيسابوري نشر وتوزيع: رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية.
- (٢٢) صفة الصفوة، المؤلف: عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج الجوزي ، الناشر: دار المعرفة - بيروت. الطبعة الثانية ١٣٩٩ - ١٩٧٩م، تحقيق: محمود فاخوري - د. محمد رواس قلعه جي.
- (٢٣) صلاح الأمة في علو الهمة، د. سيد بن حسين العفاني، مؤسسة الرسالة بيروت. الطبعة: الثانية ١٤٢٤هـ.
- (٢٤) صيد الخاطر، لإبن الجوزي، طبعة - دار ابن خلدون تحقيق عبد القادر أحمد عطا.
- (٢٥) الطبقات الكبرى، لمحمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري ، الناشر: دار صادر - بيروت.
- (٢٦) طريق الهجرتين وباب السعادتين، المؤلف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، الناشر: دار ابن القيم - الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٤ - ١٩٩٤، تحقيق : عمر بن محمود أبو عمر.
- (٢٧) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، المؤلف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، تحقيق: زكريا علي .
- (٢٨) علو الهمة، محمد بن إسماعيل المقدم، دار ابن الجوزي - القاهرة.
- (٢٩) فتح الباري شرح صحيح البخاري، المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الناشر : دار المعرفة - بيروت ، ١٣٧٩.

- ٣٠ فضائل الصحابة، لأحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة الأولى، ١٤٠٣ - ١٩٨٣، تحقيق: د. وصي الله محمد عباس.
- ٣١ فقه السيرة، المؤلف: محمد الغزالي، الناشر: دار القلم - دمشق، الطبعة: السابعة - ١٩٩٨م، تحقيق: تحقيق العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني.
- ٣٢ الفوائد، المؤلف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣ - ١٩٧٣.
- ٣٣ القاموس المحيط، لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، الطبعة السادسة ١٩٩٨م.
- ٣٤ قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، لمحمد بن علي بن عطية الحارثي المشهور بأبي طالب المكي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الثانية ١٤٢٦هـ، تحقيق: د.عاصم الكيالي.
- ٣٥ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، لعلي بن حسام الدين المتقي الهندي، مؤسسة الرسالة - بيروت ط. عام ١٩٨٩م.
- ٣٦ لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، الناشر: دار صادر - بيروت الطبعة الأولى.
- ٣٧ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣ - ١٩٧٣، تحقيق: محمد الفقي.
- ٣٨ المستدرک على الصحيحين المؤلف: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع، تحقيق: مصطفى عطا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١١ - ١٩٩٠م.
- ٣٩ مسند أبي يعلى، المؤلف: أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي، الناشر: دار المأمون للتراث - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ - ١٩٨٤، تحقيق: حسين سليم أسد.
- ٤٠ مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أحمد بن حنبل، المحقق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.
- ٤١ المعجم الأوسط، المؤلف: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، الناشر: دار الحرمين - القاهرة، ١٤١٥هـ، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني.

- ٤٢) معجم مقاييس اللغة. لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، الطبعة: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- ٤٣) المعجم الكبير، لسليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، الناشر: مكتبة العلوم والحكم - الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤ - ١٩٨٣ تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي.
- ٤٤) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، المؤلف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٤٥) هذه أخلاقنا، لمحمود محمد الخندار، دار طيبة - الرياض، الطبعة السابعة، ١٤٢٣هـ.
- ٤٦) الهمة العالية معوقاتها ومقوماتها، لمحمد بن إبراهيم الحمد، تقديم: الشيخ عبد العزيز بن باز، دار ابن خزيمة - الرياض، الطبعة: السادسة، ١٤٢٣هـ.
- ٤٧) الوابل الصيب من الكلم الطيب، المؤلف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ - ١٩٨٥، تحقيق: محمد عبد الرحمن عوض.

* * *